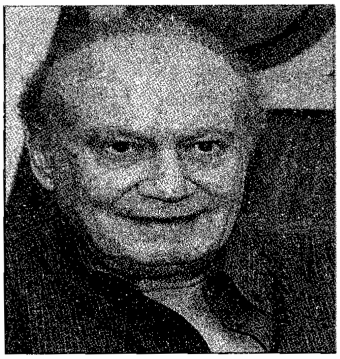
صديقى محمد عبدالمطلب كما أعرفه

محمد حماسة عبداللطيف(*)

أعتز اعتزازا كبيرا بأنى واحد من الذين تخرجوا فى الكلية التى تخرج فيها محمد عبدالمطلب. وأعتز أكثر بأنى أدركته طالبا فى الكلية؛ إذ كنت فى الفرقة الأولى وهو فى الفرقة الرابعة. ومع اتساع الفرق كنت أعرفه، بل كاد طلاب الفرق المختلفة كلهم يعرفونه شابا فارع الطول، وسيم الطلعة، جميل الهيئة، حسن الملبس يشى مظهره بأنه نُشئ فى النعيم، كأنه أحد أبناء إقطاعيى العهد القديم، حباه الله ملامح وجه توحى بالهيبة والوقار، وكان لا يُرى إلا ساعيا فى حاجة أحد من الطلاب، فكنا نعرفه وهو لا يعرفنا، ونتهيب أن نقترب منه لما يوحى به مظهره من اختلاف الطبقة الاجتماعية، فإذا اقترب منه أحدنا فَجَأة لينُ الجانب، ولطْفُ المعشر، وحُسن الخلق. فلما تخرج فى الكلية وجدناه لم ينقطع عن التردد عليها، فكان يتردد عليها، وقد ازداد وجاهة وأناقة، وكان كلٌّ منا يمنى نفسه أن يكون أحد المقربين إليه، أو اللائذين به، إذ كان يبدو دائما فى كوكبة من الشباب يلتفون حوله، ويحيطون به، وهو يفرعهم طولا، ويبزهم أناقة بحيث يظهر مَنْ حوله وكأنه فى خدمته يسعى، أو على حراسته يقوم. كانت ملامح وجهه جادة توقع فى قلب من يطالعه الهيبة والوقار، فإذا ابتسم أضاءت أسارير كل وجهه بنور جذاب، وإذا ضحك ارتج جسمه كله ارتجاجا يؤنس من حوله به، ويبهجهم بوجوده بينهم.



محمد عبدالمطلب

هذا جزء من الصورة التى عرفت بها محمد عبدالمطلب أول ما رأيته، مهيب السمت، أنيس اللقاء، ونحن فى عهد الطلب. ثم تخرجنا، وشُغلنا بالدراسات العليا والحصول على درجة الماجستير والدكتوراه، وغاب عن أنظارنا محمد عبدالمطلب فترة من الوقت، ظهر بعدها وهو يناقش رسالة للماجستير، ثم اختفى فترة أخرى.

كان د.إبراهيم عبدالرحمن قد جذبه إلى دراسة الدكتوراه فى آداب عين شمس، وعرفنا بعدها أنه حصل على الدكتوراه وعين مدرسا بآداب عين شمس، كانت أخباره تأتى إلينا من بعض من يرونه أو يتصلون به، وكنا نتابع هذه الأخبار من بعيد، أو كنت أنا الذى أتابعها من بعيد حتى أتيحت لى فرصة نادرة فى اللقاء به وتعرفه من قريب، وكان ذلك تحديدا فى عام ١٩٨٧م من القرن الماضى.

(*) ناقد مصرى.

فى هذا العام نقلت مسكنى إلى منطقة مساكن شيراتون مصر الجديدة، وكان علىَّ أن أرتب دخول أولادى مدارس قريبة من مسكننا. وانتقال الأولاد من مدارس إلى أخرى، لمن لم يعرف، من أصعب المشكلات فى القاهرة إن لم يكن فى مصر كلها، وقد جربت هذا بنفسى مرتين، مرة عندما عدت من إعارتى إلى دولة الكويت، والأخرى عندما انتقلنا إلى السكن فى المنطقة التى أشرت إليها منذ قليل، وقد ذقت كثيرا من المرارة فى تلك الأيام، وأذكر أنه فى إحدى المرات خرجت من إحدى المدارس وقد طفرت الدموع من عينى إشفاقا على نفسى وما أعانيه. ولما شكوت بعض ما أعانى إلى أحد زملائى فى كلية دار العلوم، دهش وتعجب، وقال لى: كيف تعانى وأنت بجوار محمد عبدالمطلب؟ ألم تستعن به فى هذا المجال؟ وكنت أعرف أنه يدير مدرسة الليسيه بمصر الجديدة، فقلت لمحدثى: إن أولادى لا يتعلمون فى المدارس الفرنسية. فقال محدثى بإصرار: مهما يكن تعليم أولادك فاذهب إلى محمد عبدالمطلب. فذهبت إلى محمد عبدالمطلب فى مدرسة الليسيه، وكانت دهشتى أنه لقينى كما يلقى صديقا قديما، وقد كانت علاقتى به لا تعدو أنى أعرفه من بعيد على ما وصفت آنفا، ووجدته يحدثنى حديث العارف الخبير بكل ما كتبت، ونهض لحاجتى تاركا مكتبه، وذهب معى إلى المدرسة التى اخترتها لأولادى، وإذا كل الأبواب تفتح بكل ترحيب بإشارة يسيرة منه، وشاهدت كيف يستقبله الناس استقبال المرؤوسين للرئيس بكل الحب والإعزاز وكأنهم لم يرفضوا من قبل طلبى.

من هذا التاريخ بدأت معرفتى الحقيقية بالصديق محمد عبدالمطلب، وصداقتى له، وصرت أتردد على مكتبه فى مدرسة الليسيه الذى كان يعود إليه من الخامسة مساء حتى الحادية عشرة ليلا حيث لا طلاب ولا مدرسين ولا مشكلات. ووجدته قد حول هذا المكتب إلى مكتبة عامرة بأحدث الكتب التى تتناول مجال النقد الأدبى، ودواوين الشعر الحديثة، كما أن بها عددا من كتب التراث التى يكثر الرجوع إليها وخاصة كتب عبدالقاهر الجرجانى والسكاكى والعلوى والقزوينى .. وغيرهم.

لاحظت أول ما لاحظت أن محمد عبدالمطلب يُخرج فى كل عام على الأقل كتابا، ولذلك تعرف عدد سنوات عمله فى الجامعة بما أخرج من كتب، فهو لا يضيع وقته، كما أنه رفض الإعارة إلى أى بلد عربى، وعكف على علمه ومادته يبحث ويدرس ويختار ويمزج بين القديم والحديث فى توازن واعتدال، وكل كتاب من كتبه شاهد على النظر الصحيح بعين على التراث وعين على ما يجد فى الإبداع والنقد الحديث.

ولاحظت ثانيا أن محمد عبدالمطلب لا يغيب عن أى منتدى أدبى، ولا عن أى مجلة متخصصة فى النقد الأدبى. حضوره طاغ، وصوته مسموع فى كل لقاء فكرى أو نقدى، وبحوثه حاضرة فى كل مجلة من هذه المجلات، وكنت أتساءل: كيف يجد الوقت ومتى لينتج هذه الكتب وتلك الأبحاث، حتى فرض نفسه فرضا على الساحة الأدبية والنقدية؟ الجميع يتوقعون حديثه، وينتظرون كلمته. وفى كل أزمة فكرية، أو معضلة نقدية تجد الصحفيين يهرعون إليه يطلبون رأيه ويرجون مقالاته. هذا رجل صنع نفسه بالجد والمثابرة، والبحث الدائم، وإدمان النظر. ولما رأيته وهو يعمل، ووجدت خطوطا حمراء، وأخرى خضراء، وثالثة صفراء، ورابعة زرقاء فى الكتب التى يطالعها والدواوين الشعرية التى يقرؤها، ووجدت لهذه الألوان المختلفة دلالات لديه لا ينساها، وإحصاءات معينة لا تزول عن ذاكرته، وتفسيرات لكل ذلك، عرفت بعدها أنه لم يحقق مكانته من فراغ أو من دعاية جوفاء أو من شقشقة خالية من الرصيد. هو رجل يعمل بجد، ولا ينطق إلا عن صدق ولا يقول إلا عن بينة؛ ومن هنا كان لكلمته معناها، ولزعامته دلالتها، ولريادته مشروعيتها.

وجدت فيه أن الشخصية لا تتجزأ، بل تتجلى فى تجليات مختلفة فى كل مجال من مجالات الحياة والعلم. الشهامة التى تتحلى بها شخصيته فى الإسراع لمعونة زميل أو نجدة صديق أو نصرة مظلوم أو الأخذ بيد مهضوم هى نفسها التى تتصدى للأفكار والآراء والمبدعين المهمشين، لذلك سارع إلى نصرة شعراء السبعينيات حين رأى انصراف النقاد عنهم، ونهض إلى الأخذ بيد أصحاب ما يعرف بقصيدة النثر لما رأى عدم اعتراف كثير من النقاد بهم وسكوتهم عن تأثيرهم. هى مواقف مبعثها - فى نظرى - الشهامة الشخصية قبل أن يكون باعثها الموقف الفكرى.

الوفاء فى معناه النبيل الأصيل من أهم ملامح شخصية محمد عبدالمطلب، ويمكن أن تجمع خيوط هذا الوفاء فى موقفه من التراث البلاغى والنقدى، يحاول دائما أن يقدمه فى أبهى صورة، وأجلى مظهر، لم يتنكر له كما فعل بعضهم ولم يُدر له ظهره، بل تراه دائما باحثا فيه مستخرجا منه دررا لم تكن معروفة يقدمها فى بحث أو كتاب. ومع أنه معروف فى الأوساط النقدية بمشايعته للحداثة والحداثيين لم يتخلّ يوما عن تقديم تراثه النقدى والبلاغى على أنه مكوّن أساسىّ من مكوناته الحداثية، وبذلك تشهد عناوين أبحاثه وكتبه وإشاراته فى حواشيه التى يتجاوز فيها القديم والحديث، ولكنه القديم كما يفهمه والحديث كما يفهمه. قد يكون من أنماط الوفاء القريبة وفاؤه لأصدقائه وزملائه وأساتذته، وهذا ضرب يحتاج إلى سرد كثير، والشواهد حية ومتكررة.

عدم الادعاء من أهم ملامح شخصية محمد عبدالمطلب، فعلى كثرة ما كتب من بحوث وكتب أراه يخفى أكثر مما يظهر ليس من باب كتمان العلم أو إخفاء الحقيقة، ولكن من باب التواضع، فهو مثلا يجيد الفرنسية، وقد رأيته وهو يتناقش بها مع بعض مرؤوسيه فى مدرسة الليسيه، وقد رأيت أن أحد زملائنا قد ترجم كتابا عن الفرنسية طنطن له كثيرا، ورأيت أن محمد عبدالمطلب قد رجع إلى هذا الكتاب فى لغته الأصلية قبل أن يترجمه زميلنا بسنوات، ولكنه لا يباهى بشىء من هذا كما يفعل كثيرون، لأن محمد عبدالمطلب لا يستشعر نقصا، ولكنه مشبع فى نفسه مكتمل الجوانب.

محمد عبدالمطلب عندى نموذج للعلماء الحقيقيين الذين يعنيهم العلم وحده دون سواه، ولذلك لا يجد غضاضة فى أن يسأل أو يستكمل شيئا يراه عند غيره لا يمنعه كبر، ولا يحجزه استعلاء، ولذلك تجده فى ازدياد مستمر- وامتلاء دائم.

إن جوانب شخصية محمد عبدالمطلب غنية خصبة، وهى متكاملة تتآزر فيها الخصائص الفردية مع السمات العلمية، ولا يوجد فيها شىء من التناقض أو التنافر، بل هى خصائص تنصهر فى تآلف وانسجام، ولقد عرفته وأنا طالب وانبهرت به من بعيد، وعندما أنعمت علىّ المقادير بالاقتراب منه وبصداقته كنت أستاذا مساعدا فى الجامعة ولكنى ازددت بهذه الشخصية انبهارا، وعرفت أشياء من أسباب هذا الانبهار الذى يزيد فى كل يوم.

وأنا الآن أستاذ قديم على عتبات السبعين من العمر، ومازلت أكتشف فى كل لقاء من لقاءاتى بمحمد عبدالمطلب سببا جديدا يدعونى إلى الانبهار بهذه الشخصية الفذة، إننى أعدّ من نعم الله علىّ فى حياتى أن عرفت محمد عبدالمطلب، وأعدّ من أكثرها أن جعلنى منه قريبا.